

الاسلام والرق

«فَلَا أَفْخَمَ الْعَقَبَةُ ۖ وَمَا أَذَرَكَ مَا الْعَقَبَةُ ۖ فَكُ رَقَبَةً ۖ»

صدق الله العظيم

بقلم

الدكتور عبد الباقى أحمد سديك

الأستاذ المساعد

ورئيس قسم أصول الدين بالكلية

الرق من حيث هو

الإنسان محتاج في كل شئونه المختلفة صعوبة وسهولة إلى من يشد أزره ويكون له عوناً على أدائها.

ولما كانت الأعمال في بعض الأحيان تحتّم وجود المساعد والمعين ووجود هذا المساعد بمعنى الكلمة وعلى أحسن صورة لا يتحقق إلا بقوة ونفوذ وسلطة. ليكون صاحب العمل مسموع الكلمة. نافذ القول مستريح البال مستقيم الحال. ويقوم بأعماله على أتم نظام وأحسن مثال. وهذه سنة الله.

من ذلك وجد الرق قديماً. وشاع في الأمم جميعاً. سواء كان عن طريق تسلط طبقة على طبقة. وغلبتهم عليهم. وإذلالهم واستعبادهم.

أو كان عن طريق الحاجة القاسية والفقر الشديد الذي يدفع بعضاً إلى تقديم رقبته في قيد العبودية إلى من يخلصه من ضائقته.

وكما قلنا إن إدارة الأعمال على أحسن مثال تتطلب قوة وسلطة على العامل حتى يخرج في أحسن صورة وأقل وقت.

لذلك لجأ السادة إلى فرض مزيد من العنف والقسوة على أرقائهم. حتى يظلوا قابضين على رقابهم. حاكمين فيهم. أمراء لهم. مطاعين في كل ما يقولون ويريدون ويأمرون.

لكن بعضهم. إن لم يكونوا كلهم. لم يراعوا الغاية التي من أجلها وجد الرق. وهي

المعاونة والمساعدة. فخالفوا قواعد الآداب وقوانين الشرائع من حسن المعاملة والرفق بالإنسان. وارتكبوا من المظالم ما تقشعر منه الأبدان. ويشتعل الرأس منه شيبا. ويفتت الأكباد. إذ كانوا يحرقون الرقيق أو يذبحونه كالأغنام. ويلقون لحمه للوحوش في القفار. إما لذنوب حقير أو هوى لنفس طبعت على القسوة والغلظة.

ولما جاء الإسلام غيّر هذه الصورة الكريهة. وحسّن هذه الحالة الشنيعة. وانتقل بالرقيق من الخضيض إلى المرتبة التي سنراها فيما بعد. من حسن المعاملة. والتكريم. والمساواة مع الأحرار في كثير من الحقوق والواجبات.

ولم يحرم الإسلام الرق. ولم يُلغى طفرة وبجرة قلم. لأن الرق في ذاته ليس شرا محضا. بل هو ضرورة وله فوائد تعود على المجتمع ككل. وعلى كل من السيد والعبد.

وإنما الشر في الصورة التي كان عليها قبل الإسلام.

وفيا يلي: عرض سريع لحالة الرقيق قبل الإسلام. وفي الإسلام

الرقيق قبل الإسلام

كم ضجت الأرض إلى ربها من العذاب الذي كان يصب على أولئك المساكين الذين أوقعهم الشقاء والبلاء في أيدي أناس لا يعرفون معنى للرحمة. ولا مفهوما للشفقة.

كان الرق شائعا في جميع البقاع ولدى كل الممالك.

فقد كان عند قدماء المصريين: آلة للعمل كحرث الأرض وعمارتها بالزرع وإقامة الدور وحمل الأثقال. وكانوا يرون اقتناء الرقيق من منازل الشرف ومصاعد الرفعة. فالرقيق عندهم بمنزلة الدواب.

وكان عند اليهود: لا عمل له إلا مباشرة الأعمال القذرة النجسة.

وكان عند الفرس: مكلفا بكل ما يؤمر به من الأعمال ولو كانت فوق طاقته. وكان إذا قصر في عمل لعجز أو كسل عوقب بأشد العذاب.

وعند العبرانيين: واليونان: والرومان: كان أتعس حالا. فقد كان يعذب بالحرق والقتل وبقر البطن. ويقطع إربا إربا. وكان على صنفين. صنف للحكومة. والآخر مملوك للأهالى.

فالمملوك للحكومة: يكلف بالمباني العمومية وخدمة الكهنة وحراسة السجون وغير ذلك. وكانت الحكومة تعاقبه أشد العقوبات دون سائر أفراد الرعية.

وأما المملوك للأهالى: فإنه كان يؤدى من الأعمال ما يريده المالك سواء كان العمل شاقا أو هينا. وكانت عقوبته من أشد العقوبات وأظلمها. وفي الغالب تودى بحياته. إذ كان السيد فى بعض الأحوال يقطعه ويلقى لحمه للأسماك الخاصة به فى بركة مخصوصة له.

والإيطاليون. والفرنسيون. والبريطانيون: يعدون الفلاحة من أحقر الأعمال وأخسها. ولذلك كانوا يفرضونها على الرقيق ويفرضون عليهم ضرائب من المال أو الماشية أو غيرها.

وكان من تقاليد الفرنسيين: أن من تزوج برقيق صار رقيقا مثلها.

وعند الجرمانيين: كان يضرب عليه ضريبة من مال أو ماشية.

وفى بعض الجهات: إن تزوجت بعبيدا حرقا معاً فى حالة الحياة.

والبعض: يعدمونها قتلا بالسيف.

وذهبت تلك الأمم وتركت لخلفها بعض هذه العوائد. فإن بعض دول الاستعمار يعاملون الرقيق أشد المعاملة. ويضعون له قوانين خاصة بأعماله وعقوباته. حتى إن الأمريكان يفرضون عليه من الأعمال ما هو فوق طاقة البشر.

حالة الرقيق في الإسلام

لما جاء الإسلام أنقذ الرقيق من تلك المظالم والمصائب. وسواه الشارع الحكيم في كثير من الحقوق والأحكام بغيره من المسلمين.

فنزل القرآن الكريم في مكة. يحث المسلمين على عتق الرقاب ويبين أنها أهم الطرق الموصلة إلى الجنة. قال تعالى

« فَلَا فَتْحَ لِمَنْ أَلْفَحَمَ الْعَقَبَةَ ۖ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۖ فَكْ رَقَبَةً ۖ
أَوْ اطْعَمْتَ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۖ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۖ أَوْ مَسْكِينًا
ذَا مَقْرَبَةٍ ۖ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ^(١) »

ويتوالى نزول الآيات الكريمة في شأن الرقيق.

فتأمر بالإحسان إليهم: قال تعالى:

« وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا شِرْكَ لَهُ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي
الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّالِحِينَ
بِالْحُسْنِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا
فَخُورًا ^(٢) »

(١) سورة البلد ١١ - ١٧

(٢) سورة النساء ٣٦

وتأمر الآيات بإعطائهم حقوقهم في الحياة الجنسية والعائلية: قال تعالى

« وَأَنْحَرُوا أَلْيَاسَكُمْ فِيكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ نِسَائِهِمْ وَمَا يَكُمُ^(٣) »

وإذا طلب العبد المكاتبه من سيده ليخلص نفسه من ذل الرق. فعلى السيد إجابته وإعانتته على أداء مال الكتابة. قال تعالى:

« فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا، أَلَوْ هُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ^(٤) »

ونهى الله عما كان يفعله أهل الجاهلية من إكراه إماءهم على الزنا طمعاً فيما تكسبه المرأة من فرجها. فقال تعالى:

« وَلَا تَكْرِهُوا فَتَيَكُمْ عَلَى الْبَعَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ حُصْنَ الْبَيْتِ غَوَّارِ الْحَيَاةِ

الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم^(٥) »

ويجعل الله تعالى تحرير الرقاب أحد مصارف الزكاة. قال تعالى:

« إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي

الزُّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ^(٦) »

ويأمر بتحرير الرقاب كفارة لكثير من المعاصي والذنوب والمخالفات:

فمن قتل مؤمناً خطأ وجب عليه تحرير رقبة قال تعالى:

« وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ

إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ بَعَثَ فُؤَادًا كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ

قَوْمِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رِيقٌ فِدْيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ

مُتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا^(٧) »

(٣) (٤) (٥) سورة النور ٣٢، ٣٣ (٦) سورة النساء ٩٢

(٦) سورة التوبة ٦٠

ومن حلف بالله على شيء أو نذر شيئاً فلم يوف بما حلف. لزمته كفارة ومن بين خصال هذه الكفارة عتق رقبة. قال تعالى:

« لَا يُؤْخَذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمْ مِنَ الْإِيمَانِ فَكَفَرْتُمْ بِهِ أَطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِنُسُوهُمْ أَوْ تُخْرِجُوا رَقَبَةً فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفْرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ^(٨) »

ومن جامع زوجته وهو صائم. أو ظاهر من زوجته بأن قال لها أنت علي كظهر أمي فعليه كفارة. وأول خصال هذه الكفارة عتق رقبة. قال تعالى:

« وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَّكُوا ذَلِكَ يُؤْخَذُكُمْ بِهِ^(٩) »

والخلاصة من القرآن الكريم أنه جعل تحرير الرقاب من البر العظيم. قال تعالى:

« * لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَالْإِسْجِلِ وَالسَّابِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ^(١٠) »

وننتقل إلى السنة المطهرة لنرى مزيداً وتأكيذاً من القول والعمل. فعن المعرور بن سويد قال: رأيت أبا ذر الغفاري وعليه حلة وعلى غلامه حلة. فسألناه عن ذلك فقال: إني ساببت رجلاً فشكاني إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم: أعيرته بأمة؟! ثم قال: إن إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه

(٨) سورة المائدة ٨٩

(٩) سورة المجادلة ٣

(١٠) سورة البقرة ١٧٧

تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم^(١١)

وعن أبي ذر رضى الله عنه قال صلى الله عليه وسلم: من لاءمكم من مملوكيكم فأطعموه مما تأكلون واكسوه مما تكتسون. ومن لم يلائمكم منهم فبيعه ولا تعذبوا خلق الله تعالى.^(١٢)

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم «ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي وليقل فتاى وفتاتى وغلामى»^(١٣).

وعنه رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا يقول أحدكم عبدي وأمتي كلكم عبيد الله وكل نساءكم إماء الله ولكن ليقل غلامى وجارىتى وفتاى وفتاتى ولا يقل العبد ربي. ولكن ليقل سيدى.

وفى حديث الأعمش: ولا يقل العبد لسيده مولاي فإن مولاكم الله عز وجل^(١٤) وعن أبي موسى قال صلى الله عليه وسلم: من كانت له جارية فعلمها فأحسن إليها ثم أعتقها وتزوجها كان له أجران^(١٥).

وفى رواية أخرى عنه: من كانت له جارية فأدبها فأحسن أدبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران^(١٦).

(١١) البخارى كتاب ٤٩ باب ١٥

(١٢) رواه أبو داود. انظر التاج الجامع للأصول ج ٥ ص ١٢

(١٣) البخارى ك ٤٩ ب ١٧

(١٤) مسلم. انظر النووى على مسلم ج ١٥ ص ٦٠٥

(١٥) البخارى ك ٤٩ ب ١٤، ١٦

(١٦) ابن ماجه فى السنن ج ١ ص ٦٢٩

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فإن لم يجلسه معه فليناوله لقمة أو لقمتين أو أكلة أو أكلتين فإنه ولى علاجه (١٧) .

وعن أبي بكر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: لا يدخل الجنة سَيّءُ الملكة (١٨) .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: أيما رجل أعتق امرءاً مسلماً استنفذ الله بكل عضو منه عضواً منه من النار (١٩) .

عن وائلة بن الأسقع قال: أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في صاحب لنا قد أوجب - يعنى النار - بالقتل. فقال: أعتقوا عنه يعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار (٢٠) .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: من قذف مملوكه وهو برى مما قال جلد يوم القيامة (٢١) .

وعن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه (٢٢) .

وعن عمر بن الحكم قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله إن

(١٧) البخارى ك ٤٩ ب ١٨

(١٨) الذى يسمى الصنع إلى مالهيكه. الترمذى. انظر تحفة الأحوزى ج ٦ ص ٧٧

(١٩) البخارى ك ٤٩ ب ١

(٢٠) أبو داود فى السنن ج ٤ ص ٢٩

(٢١) البخارى ك ٨٦ ب ٤٥ وفى مسلم مثله

(٢٢) مسلم (النوى على مسلم ج ١١ ص ١٢٧)

جارية لى كانت ترعى غنما لى فجنحتها وقد فقدت شاة من الغنم. فسألته عنها فقالت: أكلها الذئب. فأسفت عليها. وكنت من بنى آدم فلطمت وجهها. وعلى رقبة. أفأعتقها! فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: أين الله؟ فقالت: فى السماء. فقال: من أنا؟ فقالت: أنت رسول الله. فقال صلى الله عليه وسلم: أعتقها. ورواه الشافعى (٢٣).

وعند ابن ماجه: قالوا يا رسول الله: أليس أخبرتنا أن هذه الأمة أكثر الأمم مملوكين ويتامى؟ قال: نعم. فأكرمهم ككرامة أولادكم.. (٢٤)

وعن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم: من أعتق نصيبا له من العبد فكان له من المال ما يبلغ قيمته قوم عليه قيمة عدل وأعتق من ماله وإلا فقد أعتق منه ما عتق (٢٥).

وعن أبى هريرة: جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال: إن الآخر وقع على امرأته فى رمضان. فقال: أتعبد ما تحرر به رقبة؟ وفى رواية: حرر رقبة (٢٦).

وعن هشام بن عروة. سمع رجلا يسأل عروة بن الزبير عن رجل قال لامرأته كل امرأة انكحها عليك ما عشت فهى على كظهر أمى. فقال عروة يحجزه عن ذلك عتق رقبة (٢٧).

وروى أن ابن عمر دعا بغلام له فرأى بظهره أثرا... فقال له: أنت عتيق (٢٨)

وعن عائشة رضى الله عنها: أنها قالت: لله على نذر أن لا أكلم ابن الزبير فقبل لها:

(٢٣) مالك فى الموطأ ج ٢ ص ٧٧٧

(٢٤) سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٢١٧

(٢٥) البخارى ك ٤٩ ب ١٧

(٢٦) البخارى ك ٣٠ ب ٣١

(٢٧) مالك فى الموطأ ك ٢٩ ح ٢٣

(٢٨) النووى على مسلم ج ١١ ص ١٢٧

إن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عما قد علمت من الهجرة. فإنه لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال. فكلمته وأعتقت في نذرها ذلك أربعين رقبة^(٢٩).

وعن يزيد بن ابراهيم سمعت الحسن يقول في الذي بفطر يوما من رمضان. قال عليه عتق رقبة أو بدنة أو عشرين صاعا لأربعين مسكينا. والذي يغشى امرأته وهى حائض مثل ذلك^(٣٠).

وعن هشام. أخبرني أبي أن حكيم بن حزام أعتق في الجاهلية مائة رقبة وحمل على مائة بعير. فلما أسلم حمل على مائة يعير وأعتق مائة رقبة. فسأل النبي صلى الله عليه وسلم؟ فقال له: أسلمت على ما سلف لك من خير^(٣١).

وفي النجم الوهاج:

أن النبي صلى الله عليه وسلم أعتق	٦٣ عدد سنَى عمره
وأعتقت عائشة	٦٧ وعاشت كذلك
وأعتق العباس	٧٠
وأبو بكر	كثيرا. رواه الحاكم
وأعتق عثمان وهو محاصر	٢٠
وأعتق حكيم بن حزام	١٠٠ مطوقين بالفضة
وأعتق عبدالله بن عمر	١٠٠٠ واعتمر ١٠٠٠ وحج ٦٠
وأعتق عبدالرحمن بن عوف	وجبس ١٠٠٠ فرس في سبيل الله
وأعتق ذو الكلاع الحميري في يوم واحد	٣٠٠٠
	٨٠٠٠ ^(٣٢)

(٢٩) البخارى ك ٧٨ ب ٦٢

(٣٠) رواه الدارمى ج ١ ص ٢٥٤

(٣١) البخارى ك ٤٩ ب ١٢ مختصرا

(٣٢) انظر سبل الاسلام ج ٤ ص ١٨٣

ونختم هذه المجموعة من الأحاديث النبوية الواردة في الحث على العتق وعلى الرفق وحسن معاملة الرقيق. بما ختم به رسول الله صلى الله عليه وسلم حياته. من التأكيد على ذلك. فقد كانت الوصية بالملوكين آخر ما نطق به صلى الله عليه وسلم وظل يرددّها.

فعن أنس رضى الله عنه : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حضرته الوفاة فقال لنا: اتقوا الله في الصلاة. اتقوا الله في الصلاة. اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم. اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم. (٣٣).

وعن أم سلمة رضى الله عنها. أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في مرضه: الصلاة وما ملكت أيمانكم (٣٣).

ومما أثر عن أبي دز مرفوعا: ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بعمل صالح.

وعن علي رضى الله عنه: إني لأخجل من نفسى إذا استعبدت رجلا يقول لا إله إلا الله.

وكان عمر رضى الله عنه وعبيده يتناوبان الركوب على الناقة وهو خليفة وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أوصانى جبريل بالرفق بالرقيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم.

ورأى أبو هريرة رجلا على دابة وعبيده يسعى خلفه فقال للسيد: احمله خلفك يا عبدالله فإنما هو أخوك. روحه مثل روحك.

(٣٣) الحديثان رواهما البيهقي في شعب الإيمان. انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير ج ١ ص ١٢٨، ١٢٩ - وقال في تحفة الأمونى ج ٦ ص ٧٦: كذا في المشكاة وفيه: وروى أحمد وأبو داود عن علي نحوه. وأخرج الطبرانى عن ابن عمر بنحو حديث أم سلمة فى الجامع الصغير للسيوطى: الصلاة وما ملكت أيمانكم الصلاة وما ملكت أيمانكم..

ولما وصل عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو خليفة المسلمين وإمامهم. وكان غلامه
الراكب على الناقة وأمير المؤمنين ساع خلفه. وكان الأمير على بيت المقدس إذ ذاك أبا
عبيدة بن الجراح. فخشى أبو عبيدة أن يحتقره الناس وهو في بلاد من بقايا حكم الرومان.
فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين. أراك تصنع أمرا لا يليق. فإن الأنظار متجهة إليك.
فقال عمر: لم يقل ذلك أحد قبلك. وكلامك هذا يوجب اللعنة على المسلمين. وقد كنا أذل
الناس وأحقرهم. فأعزنا الله بالإسلام ومهما طلبنا العز من غيره أذلنا الله.

وقد تبوأ كثير من الموالى المنزلة العالية في الدين. حتى أن الله تعالى أمر نبيه صلى
الله عليه وسلم أن يصبر نفسه معهم. ولا يطردهم من مجلسه إرضاء لأشراف العرب. فقال
تعالى « وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدُوِّ وَالْغَيْثِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ
عَنْهُمْ تُرِيدُونَ الْخَيْفَةَ الدُّنْيَا ^(٣٤) » المعروف أن هذه الآية نزلت في ضعفاء الصحابة
كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود. رضى الله عنهم كما نزل فيهم قوله تعالى
« وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدُوِّ وَالْغَيْثِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ^(٣٥) »

كما تقلد كثير من الأرقاء المناصب العالية والوظائف السامية في الإسلام. فمن ذلك
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى النجابة في أسامة بن زيد أمره على جيش
عظيم فيه الأنصار والمهاجرون. وزوج النبی صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة بابنة
عمته زينب.

ولما طعن أبو لؤلؤة عمر بن الخطاب رضى الله عنه. عهد عمر بالحكومة إلى صهيب
رضى الله عنه ثلاثة أيام من بعده يتم خلالها اختيار الخليفة وبيعته.

وكافور الإخشيد الخصى جلس على عرش الفراعنة وقبض على زمام مصر. وهى
أنفس ممالك الإسلام.

(٣٤) سورة الكهف ٢٨

(٣٥) سورة الأنعام ٥٢

وبهاء الدين قراقوش كان خصيا. وهو الذى تولى بناية سور القاهرة فى زمن الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى.

والسلطان المؤيد. كان من الأرقاء اشتراه محمود شاه بثمان بخس وقدمه إلى الظاهر برقوق فأعجب به وبذكائه. ثم تولى عدة وظائف بمصر والشام فى دولة سيده الظاهر برقوق إلى أن صار سلطانا على مصر.

ولدولة المماليك فى مصر آثار إسلامية وحضارية فاخرة باقية.

والخلاصة مما سبق: أن الإسلام جاء والرق موجود. ففضى على ما كان فيه من ظلم وقسوة ووضع محل ذلك الرفق وحسن المعاملة فضلا عن أنه وسع منافذ الرق إلى التحرر سعة بالغة. إذا أضفنا إليها ما فعله الإسلام من تضيق مسارب الرق أيضا. نتج عن ذلك حتما انقراض الرق شيئا فشيئا من غير عنت ولا إرهاب للسادة. وقد كانت فعلا هذه الحالة التى وصلنا إليها من انتهاء الرق فى بلاد الإسلام تقريبا. أو نقول. كلية.

أما تضيق الإسلام لمسارب الرق فنراه فيما يأتى:

كانت أسباب الرق قبل الإسلام كثيرة ومتنوعة. فمنها: الحروب والغارات والخطف. وارتكاب الجرائم. والعجز عن الوفاء بالدين. وتناسل الأرقاء. وكان الرجل يبيع نفسه أو ولده عند الحاجة.

أما فى الإسلام: فلا رِق إلا من مصدرين:

حرب مشروعة بين المسلمين والكفار. الغرض منها نشر كلمة التوحيد وإزالة العوائق من طريقها. بشرط ألا يكون المسلمون معتدين.

رق الوراثة: وهو من تلده الأمة من غير سيدها.

وبهذا ألغى رق النخاسة والاختطاف وارتكاب المعاصي وأسرى الحروب بين المسلمين. أو الحروب التي يكونون فيها معتدين. وكذلك أولاد الإماء من سادتهن. وفي الدّين. فكل هؤلاء لا يسترقون.

وبالرغم من أن الإسلام يجيز قتل الأسير واسترقاقه. إلا أن الأفضل والغالب في الإسلام هو المنّ والفداء.

وكذلك إذا أسلم الأسير عصم نفسه وضمن حريته.

وحيثما راجت أسواق الرقيق في الشرق كما راجت في الغرب. انتشر الرق الذي ليس من الإسلام في شيء. حتى قامت كل دولة من جانبها بإلغائه. تمشياً مع روح الإسلام.

أمثلة من توسيع الإسلام منافذ تحرير الأرقاء

- ١ - أطلق المسلمون السبايا من غير عوض. كما فعل الرسول صلى عليه وسلم وأصحابه مع سبي هوازن.
 - ٢ - تنافس المسلمون في عتق الأرقاء. وشرائهم لعتقهم. كما فعل أبو بكر وعائشة والعباس وعثمان.
 - ٣ - أقر الإسلام إطلاق السبايا بعوض.
 - ٤ - أقر الإسلام تحرير الأرقاء بالمكاتبة. والتدبير. والاستيلاء.
 - ٥ - أباح الإسلام الزواج بالأمة المؤمنة.
 - ٦ - حُبب الإسلام إلى السادة التّسرى . لأن في ذلك تكريماً للسرية وأخذاً بها إلى طريق الحرية إذا ما ولدت من سيدها.
 - ٧ - حُبب النبي إلى المسلمين أن يتزوجوهن بعد أن يعتقوهن.
 - ٨ - جعل الإسلام للزوجة الرقيقة حقوقاً على زوجها كما للحرّة.
- س : هل التّسرى خزي وعار وهدم لكرامة المرأة؟
- ج : لا . وماذا يفعل الرجال بالسبايا خيراً من أن يتزوجوهن أو يستولدوهن فيصرن حليلات وأمّهات أولاد وأعضاء في الأسرة؟ أليس ذلك أفضل من بيعهن أو استعبادهن؟

٩ - جعل الإسلام عتق العبد كفارة عن كثير من الذنوب. كالقتل. والظهار. والجماع في رمضان. والحنث في اليمين. وغير ذلك. كما تقدم.

١٠ - حُبب الإسلام العتق. «فَلَا فُحْمَ الْعَقَبَةِ» وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ «فَكَرَّ بَقِيَّةُ» سورة البلد.

١١ - إذا التقط شخص لقيطا. وادعى مسلم أنه عبده. وادعى كافر أنه ابنه. سلّم إلى الكافر ليكون حرا.

١٢ - إذا أعتق شريك نصيبه. سرى العتق لباقي العبد بالضم.

١٣ - يعتق العبد إذا مثل به سيده أو عذبه عذابا شديدا. الخ

أمثلة من رحمة الإسلام بالرقيق

١ - حث على حسن معاملتهم: قال تعالى:

«وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنِّ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» (٣٦)

٢ - وقال صلى الله عليه وسلم «فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم» (٣٧).

٣ - وقال عليه السلام: «إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فإن لم يجلسه معه فليناوله لقمة أو لقتين فإنه ولي علاجه» (٣٨).

٤ - وقال عليه السلام: «لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي كلكم عبيد الله. وكل نسائكم إماء الله. ولكن ليقل غلامى وجارىتى وفتاى وفتاتى. ولا يقل العبد ربى. ولكن ليقل سيدى» (٣٩).

(٣٦) سورة النساء ٣٦

(٣٧) رواه البخارى كتاب ٤٩ ب ١٥

(٣٨) البخارى ك ٤٩ ب ١٨

(٣٩) مسلم. النووى على مسلم ج ١٥ ص ٦٠٥

- ٥ - أوصى بهم صلى الله عليه وسلم في مرض موته فقال: «الصلاة وما ملكت أيمانكم» (٤٠).
- ٦ - كان صلى الله عليه وسلم يكرم جاريته أم أيمن. ويقول لها: أنت أُمى بعد أُمى.
- ٧ - وكان صلى الله عليه وسلم يمنع التفريق في السبى بين الوالدة وولدها.
- ٨ - اشترى على رضى الله عنه ثوبين أحدهما أفضل من الآخر. وأخذ لنفسه المفضل وأعطى الفاضل لغلامه. ولما سأله الغلام. أجاب: أنت شاب وأنا شيخ.

أمثلة من مساواة الإسلام

- ١ - أباح الإسلام للأرقاء أن يتزوجوا بإماء أو حرائر. وأباح للإماء أن يتزوجن بعبيد أو أحرار.
- ٢ - يحكم بشهادة العبد والأمة.
- ٣ - لم ينظر الإسلام في كفاءة الزواج إلى أصل الزوج أو أصل الزوجة فتزوج بلال أخت عبد الرحمن بن عوف. وأسامة فاطمة بنت قيس وزيد بن حارثة زينب بنت جحش
- ٤ - إذا كان العبد متزوجا فهو وحده الذى يملك حق الطلاق ولا سلطان لسيده في ذلك.
- ٥ - للعبد المكاتب أن يبيع ويشترى.
- ٦ - على الأمة عدة مثل الحرة
- ٧ - ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا على المدينة.
- ٨ - ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة قيادة جيش مؤتة.
- ٩ - ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد قيادة جيش إلى الشام.
- ١٠ - تمنى عمر وهو محتضر. لو أن سالما مولى أبى حذيفة حى ليوصى له بالخلافة.
- ١١ - تولى صهيب الحكومة الانتقالية عقب وفاة عمر حتى تم انتخاب عثمان.
- ١٢ - صان الإسلام دم العبد. فإذا قتله حر. قُتل به.

(٤٠) البيهقى. انظر تحفة الأخوذى ج ٦ ص ٧٦

- ١٣ - حرم الإسلام بغاء الإمام كما حرم زنا الحرائر.
- ١٤ - لم يأنف الصحابة من هذه التسوية. فعمر كان يتناوب الركوب على الناقة مع عبده. وعبدالرحمن بن عوف كان يمشى بين عبده فلا يفترق عنهم.
- ١٥ - لما أنفت قريش من جلوسهم مع النبي صلى الله عليه وسلم مع العبيد. بلال وصهيب وسلمان. نزل قول الله تعالى:

« وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ »^(٤١)

وقوله :

« وَأَضْمِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ »^(٤٢)

وأخيرا : فليتدبر أعداء الإسلام قول النبي صلى الله عليه وسلم: لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأبيض على أسود ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى. الناس من آدم وآدم من تراب.

هذا هو الإسلام. والحمد لله الذي جعلنا مسلمين.

حكمة إبقاء الرق في الإسلام

إن من سعادة الإنسان. بل إن أكبر نعمة يناهاها هي نعمة الحرية. التي إذا فقدت كانت الحياة مريعة. وربما فضل بعض الناس أن يموتوا أو يقتلوا ولا يعيشون أذلاء مستعبدين.

فلأى سبب لم يقرر الشارع الحكيم نفى الرق كما نفى كثيرا من العادات التي تحرم الإنسان لذة الحرية؟

(٤١) سورة الأنعام ٥٢

(٤٢) سورة الكهف ٢٨

ربما كان الجواب: إن الشارع يضع الأشيلة في مواضعها. فإذا كانت عادة قد تأصلت في الناس من القدم. فإنه لا يفاجئهم بمحوها دفعة واحدة بالكلية. بل يجعلها في طريق فيه مصلحة. لكل من العبيد والسادة والمجتمع.

مصلحة الأرقاء

- ١ - قلل الإسلام الرق وضيق مصادره . بأن جعله من آثار الحرب الإسلامية فقط .
- ٢ - جعل العتق قرية. وكفارة. ثم أوصى بحسن معاملتهم. وشدد في ذلك. وبتضييق الروافد. وتوسيع المخرج. يؤول الرق إلى نهايته ويزول تدريجيا. وينقرض من المجتمع.

مصلحة المسلمين

كان المسلمون والإسلام في نشأته محتاجا إلى الأيدي العاملة. لفلح الأرض وحراسة الزراعة وتربية الأطفال وكل ما يقيم أمر المعاش إذ كان المسلمون في انشغال بالدعوة ونشرها. وبالجهاد والفتوحات.

وأیضا: إبقاؤه فيه إرهاب للعدو حيث يكثر به عدد المسلمين والمحاربين.

وفیه : معاملة بالمثل .

وفیه: إذلال لأهل الكفر. فالأسير لا يكون إلا كافرا.

لهذا كان بقاء الرق ضرورة.

وكان تطویره إلى الصورة الإسلامية المشرقة أثرا من آثار هذا الدين الخالد العظيم.

يقول العقاد: شرع الإسلام العتق^(٤٣). ولم يشرع الرق. إذ كان الرق مشروعاً قبل الإسلام في القوانين الوضعية والدينية بجميع أنواعه. وكانت اليهودية تبيحه. ونشأت المسيحية وهو مباح فلم تحرمه ولم تنظر إلى تحريره في المستقبل. وأمر بولس الرسول العبيد بإطاعة سادتهم كما يطيعون السيد المسيح. وأوصى الرسول بطرس بمثل ذلك. ومن وصيته (لأن الرق كفارة من ذنوب البشر يؤديها العبيد لما استحقوه من غضب السيد الأعظم).

ومذهب أرسطو: أن ناسا خلقوا للعبودية.

وأفلاطون: يقضى في جمهوريته الفاضلة بحرمان العبيد حق المواطنة.

أما الإسلام فقد حرم الرق جميعاً عدا ما هو مباح الآن في أمم الحضارة. فقد تعاهدت على إبادة الأسر واستبقاء الأسرى إلى أن يتم الصلح بين المتحاربين على تبادل الأسرى أو التعويض عنهم بالفداء والغرامة.

وشريعة العهد القديم كما نص الإصحاح العشرون من كتاب التثنية. تقول: (حين تقرب من المدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح. فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير وتستعبد لك. وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها. وإذا دفعها الرب إهلك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة وكل غنيمتها فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إهلك هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك حداً أي التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا. أما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إهلك نصيباً فلا تستيق منها نسمة بل تحرقها تحريقاً).

فالقدره في كل الحروب تغرى بالقسوة ولا تغرى بالعفو والرحمة إلا حروب المسلمين فتغرى بالمن والفداء « فَأَمَّا مَنْ أَبْعَدُ وَإِمَّا فِدَاءً »^(٤٤).

(٤٣) وأيضاً شرع الرق

(٤٤) سورة محمد ٤

ويقول: إن وصايا الإسلام في مسألة الرق خولفت كثيرا في التاريخ الحديث. وكان من مخالفها كثير من المسلمين. ولكن الإسلام - رغم هذه المخالفة المنكرة - لا يضره ولا يغيض منه قضاء التجربة العملية عند الموازنة بين جناية جميع المسلمين على الأرقاء. وجناية الآخرين من أتباع الأديان الكتابية.

إنه في أقل من ٥٠ سنة نقل النخاسون الغربيون جموعا من العبيد السود. تبلغ عدة الباقين من ذريتهم - بعد القتل والاضطهاد - خمسة عشر مليوناً في الأمريكتين... فضلا عن حظوظ أولئك الضحايا. فإن في الأمريكتين إلى اليوم أمة من السود معزولة بأنسابها وحقوقها. وليس في بلد من بلاد الشرق أمة من هذا القبيل. لأن الأسود الذي ينتقل إليها يحسب من أهلها بعد جيل واحد. له ما لهم وعليه ما عليهم بغير حاجة إلى حماية من التشريع أو نصوص الدساتير^(٤٥).

والدكتور الحوفي: يعطينا نتائج دراسته للرق. نلخصها في الآتي:

١ - كان الرق نظاما طبيعيا شائعا عند اليونان. أقرته فلاسفتهم وعللوا لضرورته. فأفلاطون: كان قاسيا في الجمهورية الفاضلة (إن الرحمة إذا وجبت بالأرقاء فإنما تجب لا مراعاة لأنهم أناس يستحقون الرحمة. بل لأنهم حقراء أخساء لا يليق بالأحرار أن ينتزلوا إلى عقابهم وإيذائهم. والخير للسادة الأحرار أن يترفّعوا عن عقابهم.

وأرسطو: يقول: الله خلق فصيلتين من الناس. فصيلة مدها بالعقل والإرادة وهم اليونان. وفصيلة أخرى لم يمدّها إلا بقوة الجسم وهؤلاء هم البرابرة الذين ليسوا من اليونان. وقد خلقهم الله ليكونوا عبيدا للسادة اليونان ومسخرين للعمل والإنتاج. ويجب بقاؤهم في قيود الرق. ومن الخير أن يظل العبيد عبيدا كما خلقهم الله ليعملوا الوطن كما تخدمه الحيوانات.

(٤٥) بتصرف كبير من حقائق الإسلام

- ٢ - اليهود: عرفوا نوعين من الرق.
- (١) استرقاق بعض اليهود عقابا على خطيئة محرمة. أو وفاء لدين.
- (٢) استرقاق غير اليهود من الشعوب التي يحاربونها (النساء والأطفال) أما الرجال فيضربون رقابهم بالسيف كما أمرتهم كتبهم.
- ٣ - المسيحية: أقرت الرق. وتوماس كبير فلاسفة النساك والقسيسين يفلسف نظام الرق فيقول: لا غضاضة في الرق لأنه قناعة بالمكانة الدنيا. ولأنه حرمان يتفق مع آداب الديانة والخضوع للضرورات.
- ٤ - المصريون القدماء: استباحوا الاسترقاق لكنهم كانوا أعظم الأمم القديمة رافة بالأرقاء فالذى يقتل العبد يُقتل. وعلى الميت أن يبرىء ذمته من إيذاء العبيد يوم الحساب. وأجازوا معاملة الإماء كما تعامل الزوجات الحرات.
- ٥ - أمة عرب الجاهلية: كان الرق متعارفا عندهم. وربما كانوا في حروبهم وغاراتهم أحرص على السبى والأسر من حرصهم على الغنائم لأن في ذلك إذلالا للعدو وانتفاعا بالأسرى.
- ٦ - واليوم: ما تزال شعوب تستعبد شعوبا. وقوى يسترق ضعيفا.
- ٧ - أما في الإسلام: فقد جاء الرق موجود. وضرورة من ضرورات الحروب. فلا مندوحة عن الحرب. ولا مناص من الأسر والسبى. فلم يكن للإسلام أن يلغى الرق دفعة واحدة. لإضرار ذلك. بالملك والعبيد.
- ومرت اليهودية والمسيحية ولم تحرما الرق. ولم تشرعا ما يضيق نطاقه. أما الإسلام: فقد نظم الرق. وشرع ما يضيقه ويقضى عليه.^(٤٦)

(٤٦) يتصرف كبير من ساحة الإسلام

الحرب الإسلامية والرق

للحرب الإسلامية التي هي مصدر الرق. أنظمة وقوانين وسنة شرعية.

من ذلك ما يكون قبل المعركة:

- ١ - لابد من عرض الإسلام على غير المسلمين قبل القتال.
- ٢ - ثم يخبرهم القائد بين أمور (١) الإسلام (٢) العهد (٣) القتال
فالإسلام لا يريد أرضا يستعمرها ولا أنفسا يستعبدنها . فالنبي صلى الله عليه
وسلم أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن وقال له: لا تقاتلهم حتى تدعوهم. فإن أبوا
فلا تقاتلهم حتى يبدؤكم. فإن بدأوكم فلا تقاتلهم حتى يقتلوا منكم قتيلا. ثم
أروهم ذلك. وقولوا لهم: هل إلى خير من سبيل؟ فلأن يهدي الله على يديك رجلا
واحدا خير مما طلعت عليه الشمس وغربت.
- ٣ - وإن كانوا معاهدين ونقضوا عهدهم. فلا نباغتهم أيضا. قال تعالى:
«وَمَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ فَاْنذِرْهُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ»^(٤٧)
- ٤ - تحب إجارة من يستجير بالمسلمين. ونبلغه الدعوة. ثم يبلغ مأمنه. قال تعالى:
«وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَةَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
لَّا يَعْلَمُونَ»^(٤٨)
- ٥ - الاستعداد بكل الوسائل لخوض المعركة. بالإنفاق على مقتضيات الحرب.
والتدريب الشامل. قال تعالى:
«وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ»^(٤٩)

(٤٧) سورة الأنفال ٥٨

(٤٨) سورة التوبة ٦

(٤٩) سورة الأنفال ٦٠

ومن الأنظمة الإسلامية في الحرب أثناء المعركة:

- ١ - يحرص الإسلام أن يكون السلام هو الأصل. والحرب عمل طارئ مؤقت. لذلك نراه يخفف من ويلات الحرب. ويحوطها بسياج الرحمة. فمن ذلك وصاياہ صلى الله عليه وسلم: لا تقتلوا شيخا. ولا طفلا. ولا امرأة. ولا تغلوا. وأصلحوا. وأحسنوا. ولا تغدروا. ولا تنفروا. ولا تمثلوا ومن وصاياہ أبى بكر. غير ما تقدم. ولا تقطعن شجرا ولا نخلا. ولا تحرقنها. ولا تخربن عامرا. ولا تعقرن شاة ولا بقرة. ولا تحجن. فلا يصح أن تتعدى الحرب إلى المدنيين من النساء والشيوخ والعباد والعلماء. والعمال. إلا إذا كان لهم في تدبير الحرب رأى ومكيدة.
- ٢ - الحرب الإسلامية دفاع وكف للعدوان. فلا يتجاوز المسلمون الحد في العقوبة. قال تعالى «الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ مَّنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِمْ يَنْفِلِمَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ»^(٥٠)
- ٣ - لا يحبس رسل الأعداء ولا يقتلون.
- ٤ - يكفل الإسلام للمستأمنين في دياره من رعايا المحاربين حقوقهم كاملة. أرواحهم وأموالهم. حتى يعودوا إلى أوطانهم. إن رغبوا في ذلك. أو رأى الإمام إنهاء إقامتهم. فيضرب لهم مدة تكفيهم.
- ٥ - إذا جنح العدو للسلام - ولو كان خائنا أو منافقا - كان على المسلمين أن يسالموه^(٥١). بشرط ألا يكون في ذلك إهدار لحق من حقوق الدين.
- ٦ - الحرب من جانب المسلمين مقيدة بالفضيلة لا تتعدها. فلا يُثَل بالقتلى ولا يُجوع الأسير. ولا يُجهز على الجريح. ولا يُعتدى على الأعراض.
- ٧ - يلتزم الجندى المسلم بتقوى الله. والطاعة لأمر الجند. وعدم الغلول.

(٥٠) سورة البقرة ١٩٤

(٥١) قال تعالى «وإن جنحوا للسلم فاجع لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم. وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله» الأنفال ٦١، ٦٢ وقال «فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً» (النساء ٩٠)

وفي عواقب الحروب يراعى الآتى:

- ١ - يُدأوى الجريح. وتُدفن الجثث. ويُحسن إلى الأسير.
- ٢ - التخريب وإتلاف الشجر والحيوان غير مقبول شرعا.
- ٣ - يُراعى التسامح في معاملة الشعوب المغلوبة.
- ٤ - بعد أن ينتصر المسلمون على أعدائهم يخبرونهم بين الإسلام أو دفع الجزية والبقاء على دينهم إن كانوا من أهل الكتاب. أما المشركون فيعرض عليهم الإسلام وحده.
- ٥ - يُخبر المسلمون في أسراهم من الكفار. فإما: القتل. أو الاسترقاق. أو المن بفداء أو غيره. وهذا هو المشهور في حكم الأسرى. والحسن وعطاء لا يجوزان غير المن والفداء لقوله تعالى « فَأَمَّا مَن بَعْدُ فَمَا فِدَاءٌ » (٥٢).
- ٦ - وأخيرا يوصى الإسلام بالوفاء بالعهد في الحرب والسلم. حتى لو استنصرهم جيرانهم المسلمون على قوم معاهدين لا ينصرونهم. قال تعالى: « وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ » (٥٣).

هذه هي سنة الإسلام في الحرب

فما خرج عن هذا النهج المتقدم فليس من الحروب الإسلامية. وإن قام بها حكام مسلمون. وإنما هي حروب اقتضاها الملك والسياسة. فالفاطميون أو تركيا إذ فتحتا مصر: لا يمكن أن نقول إنها حرب إسلامية.

الرق أحد نتائج هذه الحرب الإسلامية

إذا لم تكن الحرب إسلامية قد توفرت فيها القوانين المتقدمة. فلا رق فيها. إذ الرق لا يكون إسلاميا إلا من حرب إسلامية.

(٥٢) سورة محمد ٤

(٥٣) سورة الأنفال ٧٢

كما أنه إذا أسلم الأسير فإنه لا يقتل ولا يشرق.

وكذلك الكتابي إذا أعطى الجزية فحكمه كذلك. ويخلى سبيله. قال تعالى

« قُلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ^(٥٤) »

أما المشركون فلا يعصم دماءهم إلا الإسلام. فهم يقاتلون حتى يقولوا لا إله إلا الله. قال تعالى « فَإِذَا انشَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَخَصَرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ^(٥٥) »

الأسرى والسبى

إذا قوتل المشركون وأهل الكتاب: قُتلوا أو أسروا. وسُببت نساؤهم ومن لم يبلغ الحلم من ذرارهم.

فالأسرى: هم الرجال البالغون .

والسبى: هم النساء والأطفال. وهؤلاء كالأموال. يملكون ويُقسمون. وقيل يجوز مفاداتهم والمن عليهم مالم يقسموا.

أما الأسرى: فالإمام مخير فيهم بين: القتل، الاسترقاق، المن، الفداء - فإن أسلموا زالت عنهم هذه الأحكام كلها ما لم يباعوا فيبقى الرق. قال الشافعى : ذلك.

(٥٤) سورة التوبة ٢٩

(٥٥) سورة التوبة ٥

فإن قيل: كيف حكمت في المال والوالدان والنساء حكما واحدا. وحكمت في الرجال أحكاما متفرقة؟

قيل: ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم على قريظة وخيبر فقسم عقارهما من الأرضين والنخل قسمة الأموال. وسبى ولدان بنى المصطلق وهوازن ونساءهم فقسمهم قسمة الأموال. وأسر أهل بدر فمنهم من منّ عليه بلا شيء أخذ منه. ومنهم من أخذ منه فدية. ومنهم من قتله^(٥٦).

وقد حكم سعد بن معاذ رضى الله عنه في بنى قريظة أمام النبي صلى الله عليه وسلم: بأن تقتل مقاتلتهم وتسبى نساؤهم وأطفالهم وتغنم أموالهم.

وقال أبو عبيد: هذه أحكام الأسارى (المن، الفداء، القتل) كانت هذه في العرب خاصة. لأنه لا رق على رجالهم. فلم يسترق صلى الله عليه وسلم أحدا من رجالهم. وكذلك حكم عمر.

وهذه الأحكام إذ كانت العرب تؤسر وتسبى. وقد انقضى ذلك. وافتتح المسلمون بلاد العجم فاسترقوا الأسارى أيضا مع الأحكام الثلاثة الأولى. فأمر الناس على هذا.

عن الأوزاعى قال: سألت الزهري: ما كان عمر يصنع بالأسارى؟ قال: ربما قتلهم. وربما باعهم.. قال أبو عبيد: فليس معنى هذا إلا على العجم. لأن كل بلاد افتتحت في عهده كانت من بلاد العجم. وبعضهم كره قتل الأسير.^(٥٧)

وقال أبو عبيد: سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين: أن لا سباء على أهل الصلح ولا رق. وأنهم أحرار^(٥٨).

(٥٦) كتاب الأم ج ٤ ص ٢٣٨

(٥٧) كتاب الأموال ١٣٣

(٥٨) الأموال ١٨٣

فتلخص من كل ما تقدم:

أن قتل الأسير مكروه وخلاف الأولى.
وأن استرقاق العربي غير وارد.
وأن استرقاق غير العربي غير متفق عليه.
وأن إعمال الآية «فإما منا بعد وإما فداء»^(٥٩) هو وصية الإسلام وروحه وتسامحه.
وأن الرق يكون للسبي (النساء والأطفال). مع جواز المن عليهم.
وأن الإسلام دعا إلى الفرق بالرقيق.
وأنه رغب في عتقهم وجعله من القربات والكفارات.
كما ضيق موارده أشد تضيق.

والحمد لله رب العالمين ، ، ، ،